تقرير عن:

ندوة «الذاكرة الشعبية وتحديد الهويات»

الجامعة اللبنانية الأمريكية، بيروت، ١٢ ـ ١٣ آذار/مارس ٢٠٠٨

رندا حلبي(*)

الجامعة الأميركية في بيروت.

«**لبنان كحالة خاصة للدراسة**» موضوع الندوة التي دعا إليها قسم الإنسانية في الجامعة اللبنانية الأميركية ومركز الفلسفة في جامعة طوكيو. وقد شارك فيها عدد من الباحثين من جنسيات مختلفة تناول كل منهم موضوعاً محدداً يصب في الموضوع العام لهذه الندوة حول «**الذاكرة الشعبية وتحديد الهويات**».

افتتح الندوة البروفسور أنطوان مسرّة بعرض خبرة مرصد السلم الأهلي والذاكرة، وعرض لخبرته في تجديد الخطة التربوية.

أنتجت الروابط بين المسلمين والمسيحيين والدروز ذاكرة جماعية من خلال التفاعلات والحياة اليومية ومن خلال النزاعات وحلها. وقد أدت هذه التجارب بإيجابياتها وسلبياتها إلى هوية مشتركة بين اللبنانيين، وهذا ما يوجب تسليط الضوء عليه دوماً.

إن التفاعلات بين اللبنانيين راسخة إلى حد بعيد في ذاكرتهم، فقد كانت خطوط التماس خلال الحرب الأهلية في فترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٩ وفي أوقات وقف إطلاق النار تعجّ بالمارّة العابرين من منطقة إلى أخرى، وكانت إرادة التواصل أقوى من محاولات الفصل السائدة. لقد كان الناس ينتظرون ساعات طويلة عالقين في زحمة السير عند المعابر. وما إن انتهت الحرب، حتى تحدّى الناس جميع الحواجز، وبدأ جمع الشمل بين أعضاء المجتمعات المختلفة في كل أنحاء البلاد. لم يكن الناس مهتمّين بالمصالحة بين أرباب الحرب بل بعودة المصافحة اليومية على مستوى الناس، ولم ينتظروا إطلاقاً قيام المصالحة بين أمراء الحرب والطوائف، مخالفين معايير السرد التي فرضها عليهم قادتهم.

منذ ١٩٩٩، شكّلت المؤسسة اللبنانية

(*) البريد الإلكتروني: halabiranda@hotmail.com.

للسلم الأهلي الدائم التي أطلقها البروفسور أنطوان مسرّة إطاراً دائماً لـ «رصد السلام المدني والذاكرة في لبنان». وقد أنتجت هذه المؤسسة العديد من المنشورات التي رصدت حالات متعددة في هذا النطاق.

في سياق بناء ذاكرة مشتركة، فإن بناء الأمة في لبنان ليس ممكناً على غرار النموذج الغربي القائم على أبطال مشتركين، إرادة مشتركة وتاريخ مشترك، بل في اختيار الطريقة العملية على قاعدة المصالح المشتركة، وهذا يؤدي إلى البحث عن مؤرّخين يجيدون احتساب الكلفة والفوائد في آن واحد، مثلاً الحروب وكلفتها، منافعها على المجتمع برمّته. وهذه خاصية في المجتمع اللبناني، ولن تنجح محاولات إسقاط تجارب خارجية على الواقع اللبناني.

لن يكون لماضينا مستقبل إن لم يكن هناك فهم كامل لتاريخ الأراضي كلها؛ لا يدرس الطلاب إلّا عن جبل لبنان، لكن ماذا عن الهرمل وبنت جبيل ... لا يدرس الطلاب إلّا عن إنجازات القادة، لكن ماذا عن معاناة وحياة المواطنين؟ من هنا الحاجة إلى إلقاء المزيد من الأضواء على الناس بدل تأريخ سيرة السياسيين الذين ثبت فشلهم في إنتاج دولة تجمع بين شرائح المجتمع اللبناني كافة.

يمكن أن تشكل لجان الحقائق كمنتج غربي كارثة على لبنان. ثمة طريقة واحدة للحوار تؤدي إلى الانكسار والندم والإقرار بالأخطاء وهي من خلال المجتمع المدني دون سواه. يجب أن يطلق هذه العملية عناصر من المجتمع المدني يأخذون بعين الاعتبار خصوصية وعقد المجتمع اللبناني. لم تنتظر المصالحة أي آلية للانطلاق بعد الحرب، وستلحق بها الحقيقة فقط إن لم يلفظ أحد كلمة «حقيقة» بل تم استبدالها بعبارة «إرادة المعرفة» أو «الرغبة في المعرفة» أو «الفهم»، لأن مفهوم «الحقيقة» في هذا الجزء من العالم أسيء استخدامه أو تمّ استغلاله إلى حد بعيد بحيث ضاع معنى الحقيقة في خضم التجاذب والصراع على تحديد هذه المفاهيم.

لقد تمّ تخليد التاريخ المشترك للشهداء، مسلمين ومسيحيين ودروزاً، من خلال نُصُب (تمثال)، ومكان (ساحة الشهداء)، وتاريخ (٦ أيار/مايو). بحيث أصبحت هذه من أهم معالم التعايش الحديث (مسرّة)، مع الإشارة إلى أن مسلسل الشهداء لم يتوقّف عند هذا الحد، فالتحقت سلسلة جديدة منهم في سبيل معركة الحرية والسيادة والاستقلال والتحرير.

الذاكرة الشعبية، في إطار متعدّد الثقافات، كما هي الحال في لبنان، هي عملية تثقيفية لتحديد المكوّنات المتنوعة بطرق مختلفة، فضلاً عن كونها عنصراً مكوِّناً في الهوية. ولهذه العملية جذور جغرافية وتاريخية ودينية ولغوية.

جغرافياً، تُعتبر منطقة جبل لبنان المركز الأساسي، الذي بُنيت فيه بالتراكم الذاكرة الجماعية اللبنانية. فمنذ العام ١٩٢٠ وقيام دولة لبنان الكبير، تمّ لاحقاً تأكيد هوية خاصة اعتبرت فريدة بالنسبة إلى اللبناني، حيث تأسست بذور العيش المشترك الذي كان قائماً بين الدروز والمسيحيين وانخراط كلٌّ من الفئتين في ما

سمي لاحقاً الرؤية التأسيسية للبنان الوطن.

شكّل الرابط الجغرافي بين الدروز والمسيحيين في جبل لبنان الأساس في تكوين الذاكرة الجماعية المشتركة للتعايش في القرى المتجاورة، بحيث تعززت هذه الفكرة وانسحبت لتشمل مناطق واسعة من الجبل اللبناني، وأدخلت في سياقها سائر الطوائف اللبنانية.

تاريخياً، بدأت فكرة لبنان كبلد التعايش مع الأمير الدرزي فخر الدين المعني الثاني الكبير، وهو شعار عزيز على ذاكرة اللبنانيين الجماعية، ذلك بأن اللبنانيين يعتبرون هذا التعايش علة وجود لبنان وسبباً لاستمراره.

لقد تمّ إطلاق رؤية وطنية من خلال خبرة الإمارة المعنية والبناء عليها، وهي تتضمّن فكرة الحكم شبه المستقلّ في جبل لبنان. يقول راي معوّض: لعل النوع الأدبي عكس في «الزجليات» الهوية المارونية التي طبعت لبنان منذ نشأة الدولة في الأذهان. ولكن هذه الرؤية الوطنية التي كانت تروج لفكرة لبنان المستقل عن الدولة العثمانية تقوم أساساً على فكرة المجتمع المتنوع حيث أن في استطاعة المجموعات الدينية المختلفة التعايش في جو من الوئام والسلام القائم على احترام حق الاختلاف بعد الإقرار به.

ويوافق د. يوسف معوّض هذا الرأي بالقول: لم يذكر تاريخ لبنان الرسمي «حرب المجاعة» في جبل لبنان (١٩١٥ ــ ١٩١٨) التي خلّفت حوالى ١٠٠ ألف ضحية، كما تقول بعض المراجع.

د. وحيد بهمردي تطرّق إلى دور الدين في تكوين الذاكرة والهوية، معطياً مثل الشيعة في لبنان ومنوهاً بالمحور الممتد من جبل عامل إلى أصفهان.

على الصعيد الديني، كانت عملية تحديد الهوية بالنسبة إلى المسلمين في لبنان حاضرة منذ القرن السادس عشر بوجود قوتين هما العثمانيون السنّة في الغرب والشيعة الصفويّون في الشرق. بالنسبة إلى الكيان الشيعي، فقد تفاعل جبل عامل، وهو معقل الشيعة في لبنان، مع إيران منذ أيام الصفويين الذين كانوا بحاجة إلى المزيد من علماء الدين، فأرسلوا طالبين لبنانيين متدرّجين في العلوم الدينية (منذ سنة ١٦٢٩). لقد كانوا مختلفين من حيث الممارسة الدينية في ذلك الوقت بما أن اللبنانيين أكثر تقوى من الإيرانيين الشيعة. ثمة ذاكرة مشتركة تجمع كل الشيعة هي ذاكرة الاضطهاد. كان ذلك تاريخياً منذ موقعة كربلاء ثم في عهد العثمانيين ضد الصفويين وفي لبنان بشكل خاص بسبب الهيمنة المارونية التي اتصفت في خلال فترتي الانتداب والاستقلال بمركزية قوية أدت إلى حرمان المناطق، وخاصة الشيعية منها، من التنمية والتطور.

في التاريخ الشفهي للقسم الشيعي الجنوبي من لبنان، نادراً ما نجد مفهوم الوطن كذاكرة جماعية إنما مفاهيم نضال ضد الاحتلال الإسرائيلي. يحاول المؤرّخون الشيعة، كما فهمت من ورقة الدكتور بهمردي، أن يعطوا شرعية تاريخية لهذا النضال، لم يقتصر ذلك على نزاعات اليوم، لطالما ناضلوا من أجل

الحفاظ على استقلاليتهم وهويتهم المستقلة، وهم وفق هذه القاعدة يقدمون فكرة التحرير على فكرة السيادة، لا بل يعتبرون أن التحرير هو في أساس السيادة اللبنانية.

الشق اللغوي المقدم من هيديمي تاكاهاشي من جامعة طوكيو من خلال الترجمة والهوية الثقافية. حالة الترجمات من السرياني في قارة آسيا برمتها، مع تنوّع المفاهيم والثقافات بالنسبة إلى كل اتصال.

يمكن استشفاف **العنصر اللغوي في الذاكرة**، إذ تدعو اللغة الناس إلى الوحدة. يحكي الناس السريانية مثلاً كلغة وهم متأثّرون باللغات العربية والفارسية واليونانية وحتى الصينية في كل مكان جغرافي وصلت إليه السريانية، كانت الترجمة مختلفة بشكل جليّ، وعكس ذلك الهويات المختلفة.

وذكّرتنا د. نائلة قائدبيه أن من علامات التمييز اللغوي المهمة هو لفظ الدروز لحرف القاف (ق) باللغة العربية وبصورة عفوية بعيدة عن التكلّف والجهد. وعرضت د. قائدبيه الذاكرة الشعبية عبر التركيز على الذاكرة الجماعية والحرب الأهلية عام ١٨٦٠ في كتابات حسين أبو شقرا كشاهد عيان درزي.

لم يكن دور المجموعات الدينية في لبنان بسيطاً بالرغم من كونها كلها أقليات. وبالرغم من أن الدين كان عاملاً ملزماً في المجتمع الدرزي، غير أنه لم يؤد دوراً بارزاً في حياتهم. لأن ما يشد الدروز بعضهم إلى البعض الآخر هو العصبية، عصبية الانتماء أكثر منها الرابط الديني.

لم يتّفق اللبنانيون حتى حول توصيف واحد للحرب الأهلية التي دارت العام ١٨٦٠. حتى أن تسمية الأحداث التي جرت لم تكن واحدة؛ «أعمال الشغب عام ١٨٦٠» (وفقاً لكتابات الدروز) و«مجازر ١٨٦٠» (وفقاً لكتابات الموارنة). وقد آن الأوان للاتفاق على هذه المراحل بقراءة نقدية.

وقد يكون الأمير فخر الدين من القلائل الذين يجمَع على النظرة إليه من اللبنانيين، باعتباره من الأبطال الوطنيين المشتركين، لأن الجميع يعتبره مؤسس التعايش ورائد فكرة لبنان الحديث، وهذا أمر يشترك فيه الدروز وكذلك المؤرّخون المسيحيون الذين يعتبرون أيضاً الأمير فخر الدين بطلاً وطنياً و«الأب المؤسس للبنان المعاصر».

يقرّ الجميع بالتسامح والتعاون اللذين سادا بين المسيحيين والدروز خلال حكم الأمراء المعنيين للبنان، لأن نظرة الحكم إلى واقع الطوائف كانت نظرة مستقبلية فيها رؤية لقيام الدولة الواحدة. وقد سقطت هذه التجربة بعد أحداث العام ١٨٦٠ بحيث بدأت الحدة المتبادلة وإقامة الحدود بين الطوائف، فبدل البحث عن السلوان، خلّفت أحداث ١٨٦٠ إرثاً من الحدّة المتبادلة بين الجماعتين من الصعب إزالتها، ولعل لبنان إلى اليوم يعاني آثارها.

خاتمة

إذا كان البابا الراحل يوحنا بولس الثاني قد وصف لبنان بأنه «أكثر من بلد فهو رسالة»، فإن هذه الرسالة تمتد جذورها التاريخية إلى تلك الحقبة

التأسيسية من تاريخ لبنان، التي تطورت لاحقاً كنموذج للتنوع وحفظ الخصوصيات في منطقة أحادية اللون.

لقد جاءت بعض الكتابات المتناقضة التي كتبها دروز وموارنة حول الحرب الأهلية التي دارت عام ١٨٦٠ لتعكس الرؤية المتناقضة أو المنطق المضاد، غير أن المصالح المتناقضة التي أدت إلى الحرب الأهلية لم تمنع المصالحة والإقرار بالهويات المتعددة داخل المجال اللبناني حيث تاريخ التعايش أكثر أهمية من الخصومات المتفرقة القليلة نسبياً. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن فترات الوفاق أكثر أهمية من فترات النزاع. ولعل هذه التجارب قد صقلت خبرة اللبنانيين الذين يُنظر إليهم على أنهم أبطال معاهدات سلام وتسوية واتفاقات تحد من حساسيات الحياة المشتركة وفي كل محطة من محطات حياتهم الواحدة، وهم ينجحون في اجتراح التسوية التي تضع حداً لمراحل الانقسام وتؤسس لمراحل الوفاق والعيش المسالم، وهذا ما يجب أن يتذكّره اللبنانيون دائماً. ولعلنا اليوم أشد ما نكون بحاجة إلى هذا التذكر.

تشهد المناهج التربوية نقصاً كبيراً في غياب تاريخ من العهود الوطنية الضرورية لثقافة السلام وجزء من الذاكرة اللبنانية المشتركة. وليس كثيراً على أولي الأمر المعنيين بالمناهج التربوية من سلوك طريق إقامة التربية الوطنية على مبادئ الميثاق الذي توصّل إليه اللبنانيون في مجمل مراحل عيشهم المشترك الذي أكسبهم مكاسب تاريخية. في هذا الإطار تكمن أهمية العمل على موضوع الذاكرة بوضع حدٍّ لفقدان الذاكرة المفروض بمقتضى قانون العفو لعام ١٩٩٠.

منذ بضعة عقود تحولت المجتمعات إلى العدالة الانتقالية في التعامل مع الماضي والتحضير للمستقبل. لبنان مستعد أكثر من أي وقت مضى لإطلاق هذا المشروع بسبب المأزق على الصعيد السياسي والإداري والقانوني والديمقراطي. إن قيام دراسة ذات أثر رجعي، صادقة وحقيقية، تعكس الخطوات والمراحل التي أدت إلى الحرب، هو الضمان الوحيد للمستقبل وموجب لإعطاء الجيل المستقبلي شرعية إنهاء ملف الحرب بأفضل وجه من خلال آليات العدالة الانتقالية.

من اللافت للنظر أن الحاضرين في هذه الندوة كانوا في غالبيتهم من الأساتذة والمهتمين، وقد اقتصر حضور الطلاب، الموجّه إليهم أساساً موضوع هذه الندوة، على عدد قليل جداً منهم. هذه نقطة ضعف لأن الطلاب هم أمل المستقبل وعلى عاتقهم تقع مسؤولية الانتقال إلى حالة صون السلم الأهلي وإنهاء ملف الحرب □